

القومية العربية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كثيراً ما يسألني الشبان القدين لم يشهدوا الثورة المصرية — لأنهم كانوا أطفالاً — « هل كانت حقيقة رائدة ؟ »
 فأقول : « لقد بانّت غاية الروعة — في حدودها . ولم يكن في الوسع أن تكون فوق ما كانت ؛ ولكنها فشلت — مع الأسف — لأنها أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين »

ذلك أني أؤمن بما أسماه « القومية العربية » وأعتقد أن من خطئ السياسة وضلال الرأي أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية باسمها غير ثابتة بشقيقتها ، أو ناظرة إليها ؛ ويحسني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوروبا وليست من الشرق . وعندى أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا ، وأن هذه النظرة تفسد مزاجنا الشرقية — إذا لم تقف لنا إياها — ولأنكسبتنا مزجة من مزاجيا الغرب ؛ والعلم ينقل ، وقد نقل من الشرق إلى الغرب ، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغير جلده أو يغير خصائصه

وقد اعترض على شاب — ذات مرة — ونحن في حديث كهذا ، فقال : « وما الرأي في القومية ؟ أليست حقيقة تاريخية تفرق بين هذه الشعوب والأمم التي تربد أن تجمعهما وتربطها برباط واحد ؟ »

قلت له : « إن هذه القوميات المتينة الضيقة الحدود ، حديثة من الوجهة التاريخية ، وهي — بمحدثها الحاضرة — بنت العصر الحديث ، أو إذا شئت ، قتل أنها وليدة الحرب العظيمي ، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً ، بل إن فكرة الامبراطورية البريطانية نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين . ولعل أكبر مستول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج . ما علينا من هذا ، ولنرجع إلى حديث الشرق : لقد كلفت هناك وحدة وثقافة اسلاميتان دان لها الشرق ،

أو ما يميننا منه ، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة ، ولم عندها أن تظل قائمة أن نورات شبت ، وحروباً استمرت ، فإن هذه أشبه بالفن الفاسخية والحروب الأهلية ؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد ، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتفرّجوا ، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً ، وتخطوا نحوماً ، تفصل بين أقطار ، وتنزل أمة عن أمة . ولا يزال الحال كذلك ؛ ولو جيتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم في غير مصر — إلا من حيث التقدم المادي — وكانت اللغة العربية هي اللسان الذي لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره في حيناً يكونون من هذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هذا مصرى وذلك فلسطيني أو شامي أو حجازي . وعلى أن القومية هي اللغة لا سواها . وتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون ، وتكن الأصول البعيدة المتفائلة في القدم ماشاءت ، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعب واحد . ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يفكر — إلى الآن على الأقل — إلا بالألفاظ . هي وحدها أداة التفكير ، فلا سبيل إليه بدونها ؛ ومن المستحيل — الآن — أن تتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ تميّنه . ولكل لغة أساليب وطرائقها ، فأساليب التفكير وطريقة التصور وخاصة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ؛ وهذا فرق ما بين الانكليزي والفرنسي ، وما بين الانكليزي والهندي ؛ وهذه فيما أظن ، حقيقة علمية ، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً كالمراقيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والحجازيين ، واليمانيين ، مع اختلاف يسير تحدته طبائع هذه البلاد ؟ »

فناد الشاب يسألني : « وأصلنا المصري ؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم ؟ »

قلت له : « أكرم بهنا من أسل ! وإنها لمدينة باهرة تلك التي كانت للفراعنة ؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضارة القديمة ، ولكنها بادت وأندثرت ، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون في التراب ، والتي لا يمكن أن يؤثر في حياتنا

الحاضرة إلا من طريق واحد - هو إسماعيل العزة ، وحتنا على استحقاق هذا التراث الجليل ، كما يكون الأب كريماً فينجب الابن أن يكون كراً لثياً وأن يفعل ما يتلقى كرم آياته وطيب أرومتهم ؛ ولكن للندية العربية - أو قل الاسلامية إذا شئت - لم تكن ، ولم تبتد ، ولم تندثر ، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان ، وهذه تكتسب وتستفاد ؛ ولكنها فيما عدا ذلك ، بقيت حية ، وأبقى ما بقى منها لفتها بكنوزها المختلفة ، فهي - أي المدينة العربية - عامل مؤثر بوجوده - لا يذكر كراه كالمامل الفرعوني . ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتلة التي يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين اخواننا »

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون ، ولكنهم يرون أنفسهم شباناً ، ويستهلون أن يوكل إلى أسنانهم الفضة توثيق ما أوهته تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم ، ولكني أنا أو من بقدرة الشباب على المعجزات ، لأن خياله أنشط ، وجرأه أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبيات ، وآماله فسيحة . وإذا كان الشاب لا يقدم ، فن ذاعناه يفضل ؟؟

ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمة الصغيرة أمل في حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس مثلاً ؟ ماذا يسعهم في دنيا تموج دولها بالخلق ، وكيف يدخل في طوقهم أن يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم ؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكدهم أكلاً بلحمهم وعظامهم . ولكن مليون فلسطين إذا أضيف إليهم ما يورث الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى . وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الأكثر ، وتجل اعتمادها على حاصلات الأرض ، والصناعة فيها ساذجة محدودة ، وضيقة النطاق ، والزراعة لا تغني الأمم كاتفيتها الصناعة ، والمال عصب الحياة وسر القوة ، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هي مقسمة موزعة ، لأنه لا يوافق الدول الغربية التي لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض ، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر ، لجاراتها الشرقية ، وأسواق الجارات لمصر ، ومعقول أن تشتري منا دول أوروبا

حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها ، ولكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً في أوروبا ، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالفا ما بلغ التجويد فيه ، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق ، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية قد يقال ولكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول نعم إنه الآن حلم ، لا أكثر ، ولعله لا يتراءى إلا لأحاديث يمدون على الأصابع في كل بلد ، وعسى أن تكون العقبات المترضة والصلاب القاعة قد صرفت كثيرين عنه بمد أن دار زماناً في نفوسهم ، ولكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد منلاً مما تحلم به أمم أخرى في هذا العصر ؛ وبالأم حاجة إلى الأحلام ، وإلى الالحاح على نفسها بها حتى تتخلد إليها وتتماق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم نسع لتحقيقها ، وإلا فلأية غاية نسمى ؟؟ ماذا تطلب من الدنيا ؟ وماذا عسى أن يكون صرامها في الحياة إذا لم تحلم بأمل ؟ أيكون كل ما تبني أن تأكل هنيئاً ، وتشرب مريراً ، وتنام ملاء جفونها ؟؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إذا هي أقصرت وكفت عن الأحلام والتأمل وما يقربان به من السعي ، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشيء ، وحقيق بنا إذا سلطنا إلى حين أن نعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الخالدة

والأحلام ضرورة من ضروريات الحياة ، للأفراد والجماعات ، وبغيرها يتنزع السعي وتنقطع الحوافز ، وتركد الدنيا ويأسن العيش ، ومن لا حلم له ، لا أمل له ، ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

ظهر حديثاً :

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع للكاتب

ومنته ١٢ قرشاً علماً أجره البريد